مايكل فوزي

رق الحبيب

رق الحبيب وواعدني يوم
وكان له مدة غايب عني
حرمت عيني الليل م النوم
لاجل النهار ما ييجي يطمني

هكذا بدأت يومها المُشرِق. . . هكذا استيقظت السيدة العجوز ذات الأربعة والخمسين عامًا على كلمات تلك الأغنية. . . هكذا وقفت تلك العجوز تتلمس حبات النسيم عبر نافذة الغرفة، تسقط آشعة تلك الشمس الخريفية فتلمع شُعيراتها البيضاء القصيرة وتنير وجهها الثلجي الجميل برغم تلك التجاعيد التي رسمت خريطة عليه.
أغلقت النافذة وقد تركت ابتسامتها بالخارج فيسعد الهواء ويمرح، ثُم توجهت إلى حبيبها وسندها بتلك الحياة، انهُ زوجها -حبيب- ابتسمت له عندما وقعت عيناها عليه، فهو ينتظر تلك الابتسامة كل صباح ليبدأ يومه، قبلت رأسه ذات الشعر الأبيض الناعم، كانت تتساقط من عينيها السعادة وهي تجر كرسيه المُتحرك، منحها الله قُوة لتلبي احتياجات زوجها العاجز.
ذهبت بالكرسي حتى صالة المكان، استقر حبيب بكرسيه المتحرك بجانب أحد كراسي الأنتريه، أما زوجته فتجلس عن يمينه بأحد الكراسي، نظر لها بعين مكسورة خجولة، فقابلتها بابتسامة حنونة وحركت يدها اليمنى على صدر حبيب ثم قالت:
- خادمتك وزوجتك ستظل تحت رجليك حتى يفتقدني المولى، أنت زوجي وأبي وأخي وسبب سعادتي، منحني الله شرف الوجود بجانب شخص مثلك،

فأرجوك لا داعي لتلك النظرات الحزينة يا حبيب.
ابتسم ابتسامة ثقيلة ونظر بعينيها وأطلق لها سهم الحب والعرفان. . . ثم نظر أقصى اليسار على الحائط. . . إنها صورته عندما كان بالثلاثين من عمره أخذ يحدق بصورته وهو في ريعان شبابه.
أطال النظر. . . ثبت عينيه بها. . . ذهب للماضي وقت أخذ الصورة. . دخل في أعماق الصورة المُعلقة على الحائط.

فلاش باك – منذ سبعة وعشرين عاما بصالة استاد القاهرة المُغطاة عام ١٩٩١ (مباراة قبل نهائي بطولة المصارعة والتي تقام بمصر)
المباراة بين المُصارع -مروان الحبيب- وبطل الجمهورية للعام المنقضي -داغر-
الصالة ممتلئة عن بكرة أبيها، عشرون ألف متفرج، الأغلبية تُشجِع -مروان الحبيب- المُصاب بقدمه اليسرى ومنعه الأطباء لكنه شخص عنيد وطموح أصر على خوض المباراة.
المباراة في قمة حماستها. . نيران التنافس مُشتعلة، لا تسمع شيئا نتيجة تشجيع وتصفيق الجماهير الحاد، بالكاد الاثنان يلتقطون أنفاسهم، يأخذون التعليمات من خارج الحبال من مدربيهم، بالصفوف الاولى بجانب المقصورة تجلس -هدير- محبوبة -مروان- الجديدة. . . والتي يستمد قُوته من نظرة من عيناها. . . يكاد قلبها يتوقف خوفًا على محبوبها البطل.
ضربة من قبضة -داغر- جعلت -مروان- يفقد الوعي. . ثم وقف ينظر للمشجعين متباهيًا بسطوته ولسان حاله بأنه سيقتنص البطولة، يذهب ناحية مروان لإنهاء الموضوع.

الآن سيضرب ضربته القاضية، توجه لمروان وأخذ بالضرب المُتتالي أسفل كتفه اليسرى. . لكي يشل حركة ذراعُه، وأمسك بذراعه اليسرى لكي يـ. . .
لا لا كانت مجرد خدعة من مروان. . لقد سحب داغر أرضًا. . . تثبيت أكتاف. . . سريعا يحسب الحكم.
١. . . ٢. . . ٣. . مروان الحبيب هو الفائز بمباراة نصف النهائي.
تهتف الجماهير للبطل مروان الذي يعطي التحية لجمهوره. . . تأتي هدير لعناق حبيبها.
من بعيد تقف رحاب ابنة عم -مروان- وكانت خطيبته وحبيبته. . لكن منذ فترة وقبل أيام قليلة رآها وهي تقف مع -داغر- وتتفق معه وتسرد له نقاط ضعف مروان. . وحينها صفعها أمام داغر ومضى ومنذ ذلك الحين تترصده رحاب بكل مكان وحاولت إفساد المباراة إلى هذا اليوم (مباراة نصف النهائي).
والآن عندما دخلت الحلبة توجهت للمهزوم -داغر-. . . نظر مروان إليهما نظرات استحقار. . . لم يتمالك أعصابه وذهب أيضا وصفعها صفعات متتالية على مرأى ومسمع من الجميع، فنهض -داغر- غاضبًا ليثأر من -مروان- ووجه الجمهور السباب والكلمات الجارحة إلى رحاب والتي أخذت داغر وذهبا.
بدأ مروان بالاستعداد للمباراة النهائية. . . خاض كورس علاج طبيعي لقدمُه المُصابة، كانت محبوبته هدير بجانبه طوال الوقت. . . كانت تغمره السعاده بوجودها. . كانت تلمس نجوم السماء لوجودها بجانب البطل المروان.
أصبح -الحبيب- جاهزا تمامًا لخوض النهائي، جاءته رسالة تحذير عبر الهاتف

تحذره من خوض النهائي، أدرك أنها رحاب. . قال في قرارة نفسه -هل جزاء الحب هو الخيانة يا رحاب!؟-.
نظر إلى حُلمه المنتظر – بطولة الجمهورية للملاكمة.
جاءت اللحظة المُرتقبة للجميع، نهائي بطولة المصارعة بين البطلين: -خالد تايسون- و-مروان الحبيب-.
-خالد تايسون- بطل دورة البحر المتوسط والمشهور بعنفه الشديد، جاءت -هدير- وتركت قبلة بخد مروان الأيمن، ثم ذهبت للمقصورة
وسط الجماهير تقف رحاب حزينة لبلوغ مروان للنهائي وخسارة داغر.
بدأت المباراة، الأسمر خالد يوجه لكمات متتالية لوجه الحبيب فانتهره الحكم وحذرهُ لكنه يعرف جيدا نقاط ضعف خصمه، ضربات متتالية من مروان موجهة للجانب الأيسر لتايسون جعلت الأخير يقذف بمروان من أمامه ثم انقض عليه أرضًا
ضربة من تايسون لقدم مروان اليسرى تحمل الغل والضغينة جعلته يسقط أرضا دون حراك
تثبيت. . . ١. . ٢. . لا، نهض -مروان- ليستكمل والإصرار الحديدي يملأ فكره.
محاولة أخرى سريعة من تايسون.
تثبيت. . ١. . . وقبل استكمال العد وكان من الممكن فوز تايسون لكنه أصر على المزيد من الضربات للقدم المصابة، هاج الحكم ودفع تايسون بيده بعيدا وأنذره بإلغاء المباراة، نهض مروان ويكاد لا يرى أمامه، هدير تنظر بقلق ناحيته.
رحاب التي تتابع المبارة نهضت سريعا ناحية الحكم الخارجي، توترت

الأجواء وزمجر جمهور مروان لكن بحركة سريعة من تايسون طار وانقض على مروان وأمسك بقدمه اليسرى وحاول تهشيم المفصل. . . صرخات متتالية من مروان.

تدخل الجميع للفصل بينهما، تايسون لا أحد يقدر على الفصل بينه وبين مروان، الأخير غارق في صرخاته.

تم إنهاء المباراة واستبعاد تايسون. . ونقل مروان للمستشفى بأقصى سرعة ممكنة. . لينتظر الجميع الرحمة من المولى القدير.

أدخلوه سريعا، ذهبت هدير تلهث ناحية الطبيب. . . وعلى إثرها احتدم خلاف نشب بينهم وتركت الطبيب وذهبت.

جاء الخبر كالصاعقة، شلل نصفي للجزء السفلي لمروان، انهار الجميع موتًا. . لم يصدقوا ما سمعوا.

وأيضا بحاجة لعملية زرع خلايا واستئصال الكلية اليسرى، بعد وقتٍ طويل بغرفة الطبيب دخل أخيرا ليُجري الجراحة هو واستشاري الغدد وطبيب التخدير والذي جاء سريعا.

أثناء هذا الوقت لم يبرح أصدقاء مروان ومدربينه مكانهم

ظلوا حتى انتهاء العملية، بفجر اليوم التالي استفاق -مروان- وعلم ما حدث والشلل النصفي مُسلما أمره للقدير ناظرا للسماء، حزن جدًا لعجزه.

سأل عن -هدير-، على باب الغرفة جاء -داغر- يبتسم ابتسامة سعيدة، فرآه -مروان- فنظر لقدميه المشلولتين ثم نظر لداغر بانكسار ونفس حزينة وقال:

-هل جئت شامتًا بي؟!

دخل -داغر- ومازال مبتسمًا ووقف عند سرير أعلى رأس مروان المستلقي

عاجزًا. . . ثم انحنى داغر وقبل رأس مروان.
اندهش الأخير مما يحدث ومن وجه داغر الحزين برغم الابتسامة، ثم قال داغر:
-حمدًا لله على سلامتك، هل أنت بخير؟
- الحمد لله على كل الاحوال، لولا أن تبرعت -هدير- بكليتها لكانت الخُسارة أكثر من قدماي بكثير، هدير أنقذت حياتي.
-أنت تقصد -رحاب-.
- ماذا تقول!؟
-أقول الحقيقة. . . الحقيقة التي آن الاوان أن تعرفها وتعيها جيدًا.
- أي حقيقة؟؟ تكلم يا داغر.
-هل تقدر أن تخبرني أين -هدير-الآن؟أنا سأجيبك، هدير هربت، رفضت التبرع أو مساعدتك، تشاجر معها الطبيب لذلك ثم غادرت المكان ولا أظن انك ستراها مُجددًا، هدير كانت تُحب البطل الخارق لكن بمجرد أن حدثت لك تلك الظروف فانتهى حبها لك بنفس اللحظة.
- وما صلة رحاب بما جرى؟
-إن كلية رحاب داخل جسمك الآن، رحاب من تبرعت لك بكليتها، رحاب من كانت ستموت قلقا وخوفا عليك، رحاب من تحملت كل إهاناتك لها، رحاب من رضت بأن تضربها وتهينها أمام الناس.
رحاب من كانت تبكي ليل نهار لعدم وجودك، رحاب هي من حاولت الحفاظ عليك بكل الطرق.
هذه هي رحاب، هي الآن بالغرفة التي بجوارك تتلقى العلاج بعد الجراحة وفي قمت سعادتها لوجود كليتها بجسمك.

- ولكني رأيتها معك قبل المباراة التي جمعتنا وتسرد لك كيف تهزمني
-نعم يا حبيب، لقد كانت تُريد هزيمتك وخروجك من البطولة ولا أستطيع أن أنكر ذلك، ولكنك لم تسأل نفسك لماذا كانت تريد هزيمتك يا صديقي!! أتذكر كيف حذرك الأطباء من استكمال البطولة بسبب ساقك ولكن لعنادك الشديد فجاءت إليّ وطلبت مني هزيمتك وسردت لي نقاط ضعفك. . بالطبع كانت مجازفة منها ومني لكنها فعلت هذا لأجلك أولا. . . كل محاولاتها وتهديدها لك بعد أن فشلت هي والأطباء بإقناعك عن العدول عن البطولة، كانت تعرف جيدا خطورة المباريات على ساقك ولم تجد سبيلا سوى ما فعلته لان أطباء البطولة سمحوا لك بالمشاركة.
هذه هي رحاب يا صديقي الحبيب. . هذه هي رحاب يا مروان.

نعود مرة أخرى للعجوز مروان وزوجته.
أخيرا استفاق مروان ووجد نفسه مازال ينظر لصورته أثناء البطولة منذ سبعة وعشرين عاما. . وزوجته تحاول إفاقته. . . وعندما نظر لنفسه واستفاق ثم نظر لساقيه العاجزتين ثم وجه نظره لزوجته. . زوجته -رحاب- نعم رحاب.
وخجل من نفسه ونكس رأسه أرضا ثم دخل بنوبة بكاء مريرة
وأثناء بكائه قال وبصوت مبحوح ضعيف قال لرحاب:
-والآن يا رحاب مضى سبعةُ وعشرون عامًا. . كيف تحملتِ كل هذا. . كيف جئتِ إليّ وطلبتِ بأن نرتبط! كيف وكنتِ تعرفين أنني لن أنجب أطفالا؟ كيف ترتبطين بشخص عاجز. . لماذا رضيتي بهذه الحياة إلى جانب الحبيب العاجز. . أصبحتِ متقدمة كبيرة بالسن ولكن مازلت تخدميني

بكل سعادة وقلب فرح.
لماذا ارتضيتي بكل هذا يا رحاب!؟
- فقط لأني أحبك يا مروان، أحبك وسأموت تحت قدميك.
صمت الاثنان لمدة طويلة وسط نظرات دافئة ملأتها بئر حنان متدفق من عيني رحاب.
لحظات كلام بالأعين فقط دون الشفاه، كهرباء الحب لامست قلب العجوزين، ثُم حرك مروان يده اليمنى وأخرج علبة صغيرة من وراء ظهره ثم قدمها لحنان ففتحتها وسط اندهاشها.
إنها هدية عيد الحب. . إنه خاتم صغير. . . أمسكه العجوز مروان وألبسه لحبيبته رحاب ثم قبل يدها. . شهقت ووضعت يدها على فمها غير مصدقة وقد امتلكت النجوم برؤية هذا المشهد ونهضت ببطء وضمت رأس مروان لصدرها.
ترقرقت أعيم الاثنين بالدموع. . نظرا لبعضهما وسط شعاع حب خرج من عين مروان اخترق جدار أعين رحاب.
-ما أروعك يا كيوبيد، سهمك ينغرز بالقلوب فمن يستطيع إخراجه!!-
سبعة وعشرون عاما وما زالت شجرة حبهما يافعة خضراء مليئة بثمار الشوق، تكسوها أوراق الحنان. . ترتوي بماء العشق. . تستقر هذه الشجرة بأرض مشاعرهما. . . ويحفظها رب السماء.

****